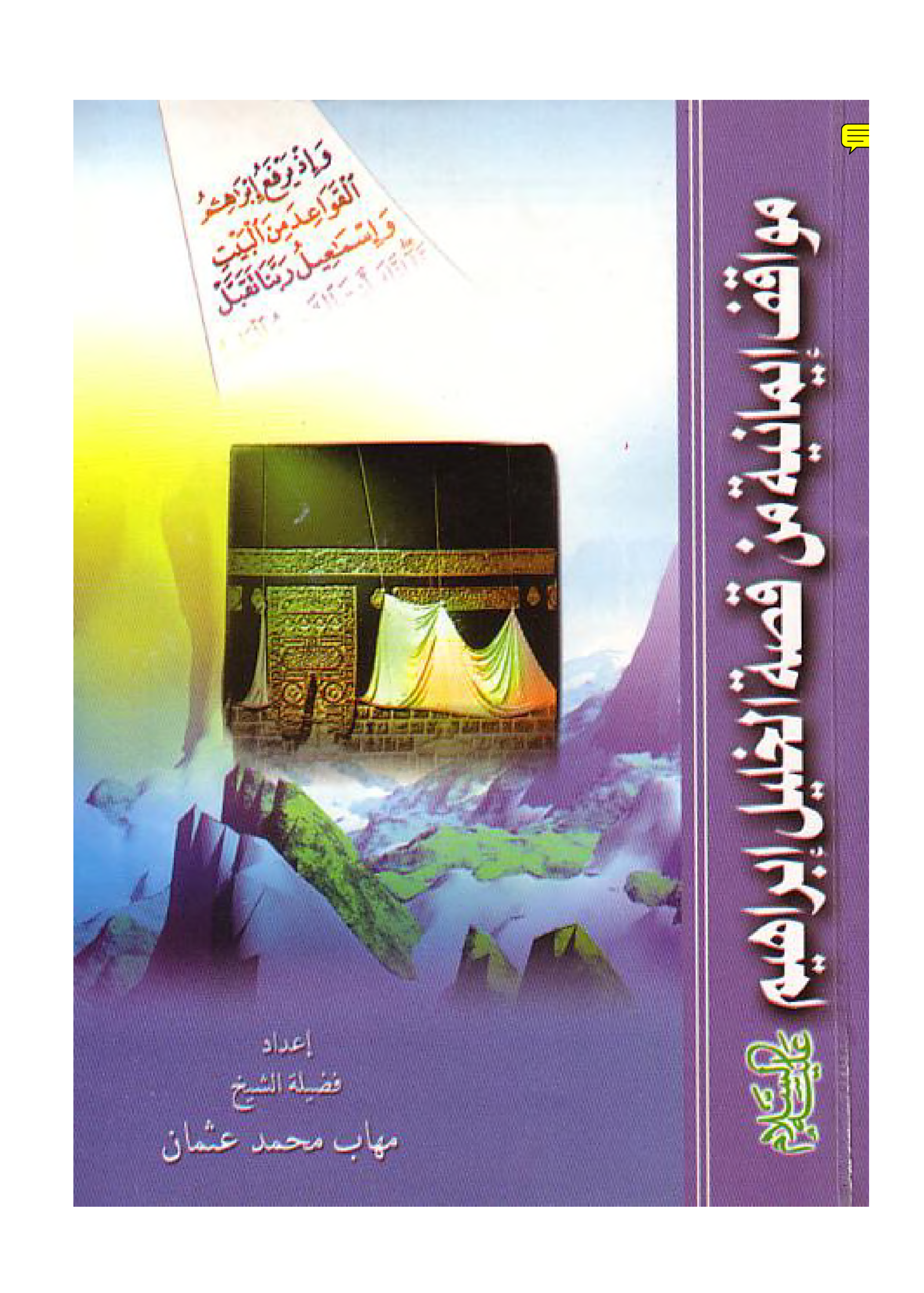


وإذ يرفع إبراهيم
القواعد من البيت
وإسماعيل ربنا تقبل
مواقف إيمانية من قصة الخليل إبراهيم عليه السلام
إعداد
فضيلة الشيخ
مهاب محمد عثمان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

وبعد... فإن الإيمان بالرسل من أركان الإيمان، ومحبتهم لازمة لأهل الإيمان، فالمرء مع من أحب يوم القيامة «وحسن أولئك رفيقا».

والقرآن الكريم به من قصص ومواقف الأنبياء الشيء الكثير والذي ينبغي أن يُدرس بعناية لتستخلص منه العظة والعبرة.

وقصة الخليل إبراهيم عليه السلام مبثوثة في سور كثير: من كتاب الله عز وجل تستعرض حياته وجهاده ومواقفه المختلفة مع أهله وقومه في أماكن عديدة، وأزمنة مختلفة، وكل موقف من هذه المواقف الإيمانية تبرز لنا فيه شخصية الخليل إبراهيم عليه السلام لتعطينا القدوة والمثل الحسن في المواقف التي قد تعترضنا في مسيرة حياتنا ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ فتارة تجد موقفا لإبراهيم الابن مع أبيه، أو لإبراهيم الأب مع ولده، وتارة نرى موقفا لإبراهيم الزوج مع زوجه أو لإبراهيم الزوج في بيته مع أضيافه، وتارة نجد موقفا لإبراهيم العبد مع ربه تبارك وتعالى أو لإبراهيم الداعية مع قومه... وهكذا تتنوع

المواقف وتتعدد في كتاب اللَّه عز وجل، وفي كل مرة نرى جديدا ورصيدا إيمانيا لنا يضيء لنا جنبات طريقنا في حياتنا.

نعم.. إنها القدوة.. القدوة الحسنة والتي نحن في أمس الحاجة إلى إظهارها وبيانها وتعريفها لنا وللناس في زمن نمر به عزت فيه القدوة، بل وتخبط الناس فيه يمينًا ويسارًا بحثا عن مثل يتأسون به فلم يجدوا إلا ساقطًا هنا أو هابطًا هناك.

وكتاب اللَّه تعالى بين أيدينا وقصص الأنبياء فيه. ﴿أولئك الذين هدى اللَّه فبهداهم اقتده﴾ فهلم فلنغترف من هذا المعين الصافي الذي لا ينضب، عسى أن يحشرنا اللَّه في زمرة هؤلاء الأنبياء والمرسلين وأن يرزقنا محبتهم وحسن اتباعهم وأن يجعلنا من خير أمة سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ النبي الأمين... آمين.

جمع وترتيب

مهاب محمد عثمان

٦/ربيع آخر/ ١٤٢٤

٦/يونيو/٢٠٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مواقف إيمانية من قصة الخليل إبراهيم عليه السلام

الموقف الأول:

موقف إبراهيم الابن مع أبيه آزر:

قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ
صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي
عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا
(٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا
(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا
أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

بدأ الخليل عليه السلام دعوته إلى اللَّه عز وجل بدعوة أبيه لأنه أقرب الناس إليه وأولى الناس بما عنده من خير وهذا عين ما فعله نبينا محمد ﷺ وقد نزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فكان إبراهيم عليه السلام حريصًا جدًا على هداية

أبيه ويكرر دعوته إليه بغاية اللطف واللين والرفق معه، وكان في دعوته إياه مراعيًا آداب النصيحة وحسن أدب الصغير مع الكبير، قوى الحجة، صابرًا محتسبًا كل أذىً يلقاه في سبيل دعوته، فلتيأس دعاة الإسلام اليوم بذلك، فما أحوجنا إلى داعية يسلك في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل مع حسن الأدب والخلق الجميل وذلك حتى لا يركب المدعو متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد، وما أحوجنا أيضًا إلى الابن المسلم الذي يحسن مخاطبة أبيه حتى وإن كان يخالفه في الرأى أو في وجهة النظر، فما بالنا وإبراهيم الابن يخالف أباه في الدين والمعتقد؟

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾؟

استعمل الإبن في خطابه مع أبيه «يا أبت» ليشعره بأنه ابنه، والإبن البار يكون حريصًا على ما ينفع أباه، ونلاحظ أن إبراهيم لم يعِب أباه مباشرة ولم يعمد إلى تجريحه وتنقيصه وإنما عاب معبوده وأظهر سوأته ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ إنه معبود أصم أعمى لا ينفع عابده بشيء، فما الفائدة من عبادته وهو أنقص وأعجز ممن عبده؟؟ وهكذا ينبغي على الداعية والابن المسلم الراشد إن رأى ما ينكره على أبيه أو أمه أو أحد من أهله أو أسرته ألا يسارع إلى تجريح الأشخاص وإحراجهم، وإنما

يعمل على إظهار قبح المعصية التي يرتكبونها وكيف أنها بالأمر الذي لا يليق بهم بحال وذلك حتى يستطيع الداعية أو الابن أن يستميل إليه أهله ويسمعون له.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ مازال إبراهيم متلطفا مع أبيه مترفقا به فلم يصف أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك، فاتبعني (فأنا وأنت في مسير واحد) فمصلحتك تقتضي أن تتبعني لتنجو من الضلال والتيه. وهذا درس ثان من إبراهيم الابن عليه السلام يعلم دعاة الأمة وأبناء المسلمين ألا يتعالموا على من يدعوهم من الأهل والأحباب بل ليلزموا التواضع وخفض الجناح.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾.

مع أن أباه لم يدّع أنه يعبد الشيطان ولكنّ إبراهيم عليه السلام قد بيّن له: إن عبادتك لغير الله هى عبادة للشيطان لأنه هو الآمر بها والمسوّل لها، «لا تعبد الشيطان» إنها صورة يستنكرها كل عاقل ويستقبحها إذ لا نفع فيها بالمرة، بل الضر والضرر العظيم. فكأنه عليه السلام يقول لأبيه: لا ينبغي لك أن تطيع الشيطان لأنه عاصٍ لربه وهذا لا يليق بك.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ .

تحول إبراهيم الابن عليه السلام من أسلوب الترغيب (السابق) إلى أسلوب الترهيب ولكن لم يخرجه ذلك عن حدود الأدب واللياقة مع الأب، فخوّفه من سوء العاقبة ولكنه لم يصرح بأن العقاب لاحقٌ به وأن العذاب لاصقٌ به ولكنه قال «أخاف أن يمسك عذاب» فذكر الخوف والمس ونكَّر العذاب وهذا درس آخر لأبنائنا وشبابنا الذين يتسرعون في إصدار الأحكام على آحاد المكلفين، ولا يتورعون عن تخويفهم وترهيبهم حتى يدفعوهم، دفعًا إلى اليأس والقنوط من رحمة اللَّه تبارك وتعالى.

ونلاحظ أيضًا أن إبراهيم عليه السلام قد صدَّر كل نصيحة من نصائحه الأربع بقوله لأبيه «يا أبت» توسلًا إليه واستعطافا مع أن إبراهيم عليه السلام على الحق وأباه على الباطل المبين، ولكنها آداب التذكرة والنصيحة والتي يجب أن يعيها دعاة العصر وشباب وأبناء الإسلام، فلابد لهم من أن يُشعروا المدعوين بأنهم يريدون لهم الخير والنجاة، ولابد لهم من أن يغلفوا دعوتهم وخطابهم بالشفقة والرحمة تأسيا بإبراهيم عليه السلام ومن بعده خير الأنام ﷺ والذي قال له ربه عز وجل: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فما أحوجنا إلى العفو والرحمة والشفقة والصفح

ثم ماذا كان رد الأب على ابنه البار؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ عنَّفه، وسماه باسمه ولم يقل له مثلا يابنى، وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأصنام، وهدده بالرجم بالحجارة، ثم أمره بأن يفارقه ويبتعد عنه زمنا طويلا.

كل هذه الغضبة على إبراهيم؟؟ يا اللَّه!! ولِمَ؟ ومع ذلك لم يقابل إبراهيم عليه السلام هذا العنف بعنف آخر بل حتى لم يعارض أباه في سوء رده ولم يستمر معه بالجدال وإنما قابل كل ذلك بغاية الرفق واللين، نعم غاية الرفق واللين «سلام عليك» فلا يصلك منى مكروه، «سلام عليك» فلا ينالك منى أذى، بل وزاده ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ وقد استغفر له إبراهيم كما وعده حتى إذا تبين له أنه عدو اللَّه تبرأ منه. فالحاصل أن إبراهيم الابن عليه السلام قد قابل غضبة أبيه وشدته بمنتهى الرفق واللين (مَن مِن أبنائنا يتصرف كذلك مع أبيه حتى ولو كان الابن هو المخطئ وليس الأب كما في قصة إبراهيم عليه السلام).

ومع هذا الأدب واللين والرفق فإن إبراهيم أعلن عن شخصيته الإسلامية بكل وضوح وجلاء فقال: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ من آلهتكم التي تعبدونها من دون اللَّه.

وهكذا بقدر انصباغ نفس المسلم بمعاني الإسلام يكون بروز وظهور شخصيته الإسلامية، وهذا هو إبراهيم الأُمة، ومع ذلك فقد ظل عَلَيْهِ السَّلَامُ محتفظًا بتواضعه وهضمه لنفسه فقد قال لأبيه: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ فهو تواضع للَّه سبحانه وتعالى بكلمة «عسى» إذ فيها من حسن الأدب والتنبيه على أن الإجابة والإنابة بطريق التفضيل من المولى عز وجل.

وهذه إشارات سريعة إليك أيها الابن المسلم ينبغي عليك أن تعيها جيِّدًا في حياتك:

أ- البداية في الدعوة بالأقربين.

ب- حسن الأدب والملاطفة وخفض الجناح خاصة مع كبار السن والمقام منهم.

جـ- عليك أيضًا أن تتحمل منهم الأذى مما لا تتحمله من غيرهم وذلك لمزيد حقهم والشفقة عليهم.

د- مقابلة الإساءه بالإحسان مما ينبغي أن يتسلح به الابن الراشد فلا يستعمل من الكلمات إلا ما حَسُنَ طاب.

هـ- وأخيرًا فإن صاحب الشخصية المسلمة «الحقيقة» لا يتأثر بالبيئة الفاسدة من حوله، بل يسعى في أن يؤثر فيها ويصلحها.

الموقف الثاني:

موقف إبراهيم النبي مع قومه عباد الأصنام:

أهل الإيمان ليس لهم قضية تشغل قلوبهم وجوارحهم إلا قضية التوحيد، فهم يسعون دائمًا لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وإن اختلفت طرقهم ومناهجهم في الإصلاح. فهم يعبّدون قلوبهم وجوارحهم للَّه عز وجل ويحبون من الناس أن يعبّدوا قلوبهم وجوارحهم للَّه سبحانه وتعالى. وقد تعددت مواقف النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يدعو قومه عباد الأصنام للتوحيد وعبادة اللَّه عز وجل، فتارة يبين لهم قبح المعصية، وتارة يذكرهم باللَّه عز وجل، وتارة يقيم عليهم الحجة أن هذه الآلهة المزعومة الحجرية لا تنفع ولا تضر، وتارة يعرفهم باللَّه عز وجل معبوده الحق وإلهه الواحد الأحد كما جاء في سورة الشعراء من
خلال الآيات البينات التاليات: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى
خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣)
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥)
وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا

يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٩].

إنه حوار العقيدة، إنها قضية التوكل، إنه التذكير باليوم الآخر، إنه الأواه الحليم يعرف قومه بربه تبارك وتعالى. فهيا بنا نقف مع بعض الومضات من خلال هذا الحوار الراقي:

١- إبراهيم النبي عليه السلام لم يمنعه أن آباه وقومه يعبدون ما يعبدون ففارقهم بعقيدته وجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم الباطلة. وكذلك يعلم القرآنُ أهل الإيمان أنه لا مجاملة في العقيدة لوالد لا قوم وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة وأن القيمة العليا هي قيمة الإيمان.

٢- الاحتياط في القول والدقة في التعبير صفتان جديرتان بإبراهيم عليه السلام وهو يتحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق، فقد استثنى «رب العالمين» من عدائه لما يعبد قومه وآباؤهم الأقدمون فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عَبَدَ اللّه عز وجل قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف.

٣- عندما بدأ إبراهيم يصف ربه أعطانا الشعور بمدى قوة صلته بربه في كل وقت وفي كل حين وفي كل حاجة وفي كل غاية: في الإنشاء والهداية، في الطعام والشراب، في الصحة والمرض، في الإحياء والإماتة، في كل خلجة من خلجاته. وهذا درس عظيم جدًا لأهل الإيمان أن يوطدوا الصلة باللّه تبارك وتعالى في كل شأن من شئون حياتهم وأن يستشعروا معية اللّه سبحانه وتعالى لهم في كل لحظة من لحظات حياتهم.

٤- إبراهيم عليه السلام كان دقيقًا جدًا في وصفه لربه عز وجل، ففي كل فعل يحتمل أدنى مشاركة من المخلوقين كان إبراهيم يأتي بضمير الرفع المنفصل «هو» ليؤكد أن الفاعل على الحقيقة هو اللّه تبارك وتعالى، فالذي يهدي في الحقيقة هو اللّه وإن أرسل رسلًا لهداية الناس، والذي يوجد فينا الريّ والشبع على الحقيقة هو اللّه وإن خلق لناالطعام والشراب لتحقيق ذلك، والشافي الذي يعافي على الحقيقة هو اللّه وإن أوجد لنا الطبيب والدواء، وهكذا كان نظر إبراهيم النبي عليه السلام إلى بواطن الأمور وحقائق الأشياء ليُعرِّف الناس بربهم الحق وليُعلِّمهم التوكل الحقيقي على اللّه تبارك وتعالى.

أما في الأمورالتي لا تحتمل مشاركة من أحدٍ من المخلوقين -كالإحياء والإماتة- فإنه لم يَحْتَجْ حينئذ لأن يأتي بما يؤكد هذه الصفات في حق اللّه عز وجل.

٥- إبراهيم النبي عليه السلام يعلمنا الشعور بالتقوى والأدب

والتحرج مع اللَّه عز وجل، كيف؟ إنه وهو الخليل والنبي والرسول والذي يعرف ربه هذه المعرفة يبين لنا أن أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين، فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئًا إلا أنه يطمع في فضل ربه ويرجو رحمته. إنه القمة في التواضع وهضم النفس، درس عملي بليغ لآحاد الأمة والذين يتصرفون مع العباد وكأنهم مبشرون بالجنة، لا وألف لا، فإن كل واحد منا ينبغي عليه أن يعرف نفسه بإنصاف وتجرد حتى يحسن معاملة ربه تبارك وتعالى على أساس من التقوى والأدب والمراقبة.

٦- ثم يأخذ إبراهيم النبي عليه السلام بعد ذلك في الدعاء الرخى الخاشع ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

الدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الدنيا، إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى، إنه دعاء القلب الذي عرف ربه فسلم، سلم من الدنيا، وذاق حلاوة الآخرة فهو يطلب منها المزيد.

وتأمل قوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الذي يرجو ذلك؟ إنه النبي الأواه الحليم الكريم الأمة الذي وفَّى، فياللتواضع، وياللإشفاق، وياللخوف من تقلب القلوب، وياللحرص على مجرد اللحاق بالصالحين. إنه درس آخر ولكن في أدب الدعاء، الدعاء المغلف بالتواضع الجم والشفقة والخشوع.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ إنه دعاء الذي يستشعر هول اليوم الآخر، إنه دعاء يبرز لنا مدى حياء إبراهيم عليه السلام، ومدى خشيته وخوفه من تقصيره - وهو النبي الكريم، ونحن واللَّه أولى بذلك منه.

الموقف الثالث

موقف إبراهيم الداعية مع النمرود

بعد أن واجه إبراهيم عليه السلام أباه وقومه وحطم أصنامهم وانتصر على قومه بالحجة والبيان وُغلبوا في هذا الميدان، فروا منه إلى ميدان البطش والتنكيل فأصدروا حكمهم الظالم على إبراهيم بالإعدام حرقًا، ولكنّ اللَّه تبارك وتعالى نجى خليله ﴿قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾ وخرج إبراهيم من النار سالمًا، وسمع بذلك ملك ذلك الزمان النمرود بن كنعان فأمر بإحضار إبراهيم ودار بينهما هذا الحوار والذي ذكره ربنا تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ إن الاستفهام هنا للتعجب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغبائه مع الإنكار، خاصة بعدما رأى الآية الباهرة وهي خروج إبراهيم سالما من النار.

﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ وياللعجب! إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر هذا السبب هو ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف ولكنه طغى وبطر فكان منشأ إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته هذه النعمة التي جحدها. وهذا تحذير شديد لمن يسيئون فهم النعمة واستغلالها. إن هذه النعم التي يمنّ اللّه تبارك وتعالى بها علينا ينبغي أن تُشكر وتُصرّف في مرضاته، أما أن نجحد ونجفو، فحينئذ سيكون مصير هذه النعم السلب فنعوذ باللّه من السلب بعد العطاء.

ونلاحظ هنا أن إبراهيم في هذا الموقف كان يواجه طاغية من طواغيت الأرض أمام حاشيته، وهذا الموقف بالطبع يختلف عن مواجهة عامة الناس كما حدث بعد حادث تحطيم الأصنام مثلا: أو قبلها، ومن هنا سنلحظ الفرق في كلام إبراهيم عليه السلام في هذا الموقف الإيماني عن الموقف السابق خاصة فيما يتعلق بالحديث عن صفات ربه تبارك وتعالى.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فكأن هذا الطاغية قد سأل إبراهيم عليه السلام عن ربه الذي يدعو إلى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه أحلام عابديها، فماذا كان جواب الداعية المخلص؟ ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ونلاحظ في هذا الجواب أن إبراهيم قد عرّف ربه تبارك وتعالى بالصفة التي انتهى بها في حديثه مع قومه كما ذكرنا آنفا في سورة الشعراء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ لأنه فرق كما ذكرنا للداعية عندما يواجه عامة الناس ثم عندما يواجه رأسا من رؤوسهم، ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ إنها الصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ولا يمكن أن يزعمها أحد، ومن ثَم عرّف ربه تبارك وتعالى بها. والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المتكررتان في كل لحظة، وهما في الوقت نفسه السر الذي يحير والذي يلجئ الإدراك البشري إلجاءً إلى مصدر آخر غير بشري.

فماذا كان رد المتكبر المغرور؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أحي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، فدل جوابه هذا على أنه لم يفهم قول إبراهيم عليه السلام، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن يعني من الإحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء وذلك بالطبع عمل الإله الواحد الأحد

الذي لا شريك له.

وهنا كان أمام إبراهيم الداعية عدة خيارات ليسلكها مع هذا المكابر المعاند:

- إما أن يقطع المناظرة ويوقف المناقشة معه لأنه لا يجدي كلام مع رجل يحاور ويداور حول تلك الحقيقة الهائلة، ولكن انقطاع المناظرة أمام هذا الملك وحوله حاشيته قد يخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم وسيظنون في نهاية الأمر أن الملك قد قطع حجة إبراهيم وتغلب عليه في هذه الجولة.

- أو أن يسترسل معه في جدال حول معنى الإحياء والإماتة، وحول حقيقة منح الحياة وسلبها، ومن المعلوم أن الدخول في جدال مع طاغية مكابر معاند مثل النمرود أمام حاشيته من الممكن أن يدفعه إلى إحداث شغب وإثارة للرأي العام من حوله تجاه هذا الداعية الكريم إبراهيم عليه السلام.

- أو أن يذكر دليلا آخر يبين وجود الصانع الحق ويبطل ما ادعاه النمرود المعاند، وهذا عين ما فعله إبراهيم عليه السلام. فهو أولا قد عدل عن طريق العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الألهية في قوله ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلى طريق التحدي وطلب تغيير سنة اللّٰه لمن ينكر ويتعنت ويجادل في اللّٰه تبارك وتعالى كما

في قوله ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾، ثانيا قد ذكر حقيقة كونية ظاهرة متكررة. تطالع الأنظار والمدارك كل يوم ولا تتخلف مرة ولا تتأخر، فالذي سخرها وسيرها وقهرها هو اللّٰه الذي لا إله إلا هو.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ فهو خالقها، خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت أيها الملك ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وكأن إبراهيم عليه السلام قد ألقمه حجرا في وجهه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ فهو أعجز وأقل من أن يخلق بعوضة أو حتى ينتصر منها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والحمد للّٰه رب العالمين.

ونلاحظ هنا قوة شخصية إبراهيم عليه السلام وثباته وهدوء أعصابه وحضور حجته، وهى كلها صفات ينبغي أن يتحلى بها أصحاب الدعوات ودعاة العصر لأن ذلك من هدي الأنبياء صلوات اللّٰه وسلامه عليهم أجمعين ولأن ذلك أيضا من عدة النصر الذي وعد اللّٰه عباده المتقين ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا أن مثل شخصية النمرود هذا موجود في حياتنا اليومية كرئيس متسلط على مرؤوسيه أو مدير متكبر على مداريه أو مسئول (في أي موقع من

مواقع المسئولية) يتصيد الأخطاء ويكابر ويعاند في البديهيات، فإن أسلم طريق للحوار مع أمثال هؤلاء أن تسلك معهد سلوك أبي الأنبياء عليه السلام.

الموقف الرابع

موقف إبراهيم صاحب الحجة مع قومه عباد الكواكب:

خرج إبراهيم عليه السلام من أرض بابل بالعراق وتوجه ناحية الشام وهناك وجد أهلها يعبدون الكواكب والنجوم فكانت هذه المناظرة بينه وبينهم والتي ألهمه اللَّه تبارك وتعالى فيها الحجة البينة والتي قصها القرآن الكريم علينا في سورة الأنعام. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

إبراهيم عليه السلام صاحب حجة قوية، مُلهَم، قد آتاه اللَّه رشده من قبل، وفي هذا المقام هو في محاورة ومناظرة مع قومه، وكأنه

قد اشترط عليهم أولا شرطا لعبادة إلههم وهو أن يكون إلهًا حاضرًا لا يغيب لأن الإله الحق هو الدائم بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه، وهذا غاية في الحكمة منه عليه السلام لأنه لم يشأ أن يهدم عليهم عقيدتهم جملة واحدة ابتداء وإنما أراد أن يسوق معهم لسان العقل وصوت الحجة القوية والتي تسكت وتخرس كل ألسنة الباطل حتى يبرهن على ربه تبارك وتعالى.

وبدأ مسايرتهم: أولا بالكوكب، ثانيًا بالنجم، وثالثا بالشمس، والثلاثة من معبوداتهم وهى تشترك أيضًا في صفة واحدة، ألا وهى: أنها تطلع تارة وتغيب أخرى، وتظهر وقتًا وتأفل آخر، إذًا هى لا تصلح للألوهية لأنها تغيب وقتًا عن هذا العالم، فمن يدبر الأمر أثناء غيابها؟ وهل هناك إله يغيب؟ وهب أنك احتجت إلهك وهو غائب! كيف يكون الحال؟ إذن هذه الأجرام المشاهدة لا تستحق أن تعبد من دون اللَّه تبارك وتعالى، فلابد أن من ورائها إلهًا قد خلقها وسخرها وأوجدها، فهذا هو الذي يستحق العبادة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

إنها قضية بسيطة، سلك فيها إبراهيم صاحب الحجة عليه السلام مسلكًا عقليًا هادئًا، فهو أولا رد القوم إلى أرضية مشتركة يرتضيها كل صاحب عقل وهى أن الإله لا ينبغي له أن يغيب، ثم هو بعد ذلك ثانيًا سايرهم في آلهتهم المزعومة بالتدريج، وفي كل مرة

كان يبرهن لهم على بطلان عبادتهم، وثالثا وأخيرًا أعلنها واضحة جلية أمام أعينهم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وهذا منهج في مناظرة ومحاورة الذين يخالفونك في الرأي، منهج حكيم سديد عقلي هادئ يدمغ من أمامه بالحجة الفاصلة والبرهان الساطع.

ومع ذلك ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ لم يقنعهم قول الحق الذي قاله إبراهيم وإنما أخذ يجادلونه فيما قاله، فكيف كان رده عليه السلام عليهم؟

١- قال ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: أتجادلونني في أمرالله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة؟

٢- ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه من أن هذه الآلهة التي تعبدونها أنها تؤثر، هو أني لا أخافها ولا أباليها ولا أقيم لها وزنا، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تمهلون. ونلاحظ أن هذا التحدي الذي واجه به إبراهيم عليه السلام قومه هو عين ما واجه به نوح عليه السلام قومه حين قال لهم ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ وهو عين ما واجه به هود عليه السلام قومه حين قال لهم ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ فهو هدى أنبياء الله تبارك وتعالى مع قومهم المعاندين المكابرين.

٣- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله وكيف أقيم لها وزنًا وهي لا تنفع ولا تضر.

٤- ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي وإن كان الحال كذلك فينبغي عليكم أنتم أن تخافوا من الله الواحد القهار لأنكم أشركتم به مالم يأتكم به حجة أو برهان على عبادته.

٥- ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وإن كانت المسألة مسألة خوف وأمن، فبناء على ما قلته لكم مَن منا يكون أحق بالأمن ومَن منا أولى بالخوف؟ ونلاحظ هنا أن إبراهيم صاحب الحجة عليه السلام قد تدرج في رده عليهم حتى ألجأهم إلى التفكير في الإجابة عن هذا السؤال والذي به سيحسم الجدال الدائر بينه وبينهم، ثم أجابهم:

٦- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم

﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ ونلاحظ هنا أنه لم يذكر تحديدا من منهم أحق بالأمن ومن أولى بالخوف ولكنه جاء بصفة الفريق الآمن وهى: إيمان حقيقي دونما شرك، إيمان نقي خالص من الشرك، فكلمة الظلم هنا تعني الشرك فالقرآن يفسر بعضه بعضًا كما قال تعالى في سورة لقمان «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» ومن خلال هذه الآيات والتي رد فيها إبراهيم عليه السلام على قومه نستطيع أن نطالع حجة إبراهيم القوية والتي دمغ بها قومه، وهو في كلامه عليه السلام ومن خلال حواره تبرز لنا شخصيته الإسلامية وتتضح لنا تمام الوضوح، فهو عليه السلام رابط الجأش حاضر الذهن قوي الحجة هادئ لا يتأثر بالبيئة الفاسدة من حوله لا ترهبه كثرة المبطلين ولا يتسلل إلى قلبه أي معنى من معاني الإعجاب بهم أو الخوف منهم مُلهم صاحب حجة حاضرة فالباطل لا يصير حقا بكثرة أتباعه والحق يبقى حقا وإن لم يحمله إلا واحد ولذا أثنى اللّه تبارك وتعالى عليه مباشرة بعد هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

الموقف الخامس

موقف إبراهيم الزوج مع زوجه هاجر:

أهدت السيدة سارة زوجها إبراهيم عليه السلام هاجر، فتزوجها

إبراهيم عليه السلام وولدت إسماعيل عليه السلام أول أبنائه. وقد غارت السيدة سارة مع صلاحها وإيمانها وتقواها من هاجر لما ولدت لإبراهيم عليه السلام، وتلك طبيعة في المرأة لا تذم عليها إلا إذا غالت فيها. ويروي لنا الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة. والمنْطق بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء والقاف هو ما يشد به الوسط ومنه النطاق، والمعنى أن هاجر كانت تتعمد إخفاء آثار أقدامها عن سارة لكي لا تعرف مكانها لغيرتها منها عليهما السلام.

فسافر بها إبراهيم عليه السلام ومعها رضيعها إسماعيل من فلسطين إلى مكة حتى وضعهما عند البيت عند دوحه قرب زمزم الأن في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد على الإطلاق لازرع ولا ماء ولا إنس ولا جن، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء وفيه ماء ثم انطلق عليه السلام، فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ قالت ذلك مرارًا وإبراهيم عليه السلام لا يلتفت، ثم قالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات الرخيات النديات: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

وجعلت هاجر ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه (وهو يتألم، إذ ما أصعب ذلك على الأم) فقامت إلى الصفا أقرب جبل في الأرض يليها واستقبلت الوادي ونظرت هل ترى من أحد فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي ثم سعت سعي الإنسان المجهود ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**فلذلك سعى الناس بينهما**» فلما أشرفت على المروة في نهاية المرة السابعة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم وجدت أن هذا الصوت ناحية رضيعها إسماعيل، فوجدت الماء ينبع من تحت قدميه عليه السلام إذ جاء المَلَك وضرب الأرض بطرف جناحه فنبعت زمزم، زمزم المباركة بحفر ملك عند قدم نبي. وظهر الماء وجعلت هاجر تحوضه وتقول بيدها زم زم (أي تجمع)، قال ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت زمزم عينا معينا**» فشربت وأرضعت ولدها عليهما

السلام فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من قبيلة جرهم (وهم من أهل اليمن وقد خرجوا منها بعد انهيار السد) فرأوا طائرًا يطير في السماء فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، وما عهدنا بهذا الوادي ماء، فأقبلوا ووجدا هاجر وإسماعيل عليهما السلام عند الماء فاستأذنوها أن يساكنوها فأذنت لهم، وشب معهم إسماعيل عليه السلام وتعلم منهم العربية، بل وصار أفصحهم.

هذا المقطع من قصة وحياة الخليل عليه السلام قد حوى معانيَ عظيمة وفوائد جمة نجملها في النقاط الآتية:

١- إبراهيم عليه السلام -الزوج- يسير بأسرته الصغيرة من فلسطين إلى مكة، ثم يضع رضيعه وأمه بواد قفر لا جليس فيه ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع ولا ماء امتثالا لأمر اللَّه تبارك وتعالى، فهو عليه السلام لم يدعهما في هذا المكان إلا بوحي من اللَّه سبحانه وتعالى. وإنك لتعجب من إسلام إبراهيم عليه السلام، إنه إسلام حقيقي: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ إنه استسلام تام لأوامر اللَّه عز وجل وطاعة مطلقه في كل صغيرة وكبيرة. زوج يرزق بولده الوحيد آنذاك بعد أن جاوز الثمانين ثم يؤمر بترك أسرته الصغيرة عند هذا المكان تحديدًا، ثم يمتثل دون تردد أو جدال أو تباطؤ! إن هذا الزوج هو إبراهيم عليه السلام. وإنك لتكاد تسمع صوت الزوجل وهي تقول: آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. نعم إنه أمر اللَّه

تبارك وتعالى، وإذا أمر فعلى العباد السمع والطاعة، إنه إبراهيم الذي وفّى.

وهذا درس عظيم لكثير من الأزواج الآن يعلمهم كيف يكون رد الفعل وكيف يكون التصرف عندما يتعارض أمر اللّه تبارك وتعالى مع رغبة الأسرة، أو مع رغبة الزوج نفسه؟ أمر اللّه يقدم بدون تردد، حتى إن عارض ذلك رغبة في نفسك أو رغبة لأسرتك، حتى وإن كانت الحكمة في ظاهر الأمر تخفى عليك الآن، فلابد من الامتثال وتقديم طاعة اللّه عز وجل فورًا دون تلكؤ أو تفكير أو تأخير. لابد أن تكون الأسرة مسلمة قلبًا وقالبًا.

٢- وإن تعجب من موقف الزوج فإن عجبك من موقف الزوجة أشد! زوجة وحيدة مع رضيعها في مكان لا إنس فيه ولا جان، وشيء من الزاد يسير، ثم عندما تعلم أن ذلك أمر اللّه سبحانه وتعالى تقول: إذن لا يضيعنا!! ياللعجب! إنها ليست مجرد كلمة نطقت بها في لحظة انفعالية ولكنها كلمة نطق بها قلبها أولا ثم تحرك بها لسانها ثانيا. إنها كلمة قلب مطمئن لجناب اللّه عز وجل، إنها كلمة قلب موقن بربه وخالقه ورازقه، موقن بأن هذا الرب جل وعلا سيحفظهم ولن يضيعهم. إنها كلمة خليقة بأن تنطق بها زوجة الخليل عليه السلام، الخليل الأمة الذي واجه مجتمعه كله وحيدا ثابتا على أمر اللّه موقنًا بموعوده، إنها كلمة نطقت بها

هاجر لتعلم بها نساء الدنيا حقيقة اليقين على اللّه تعالى والثقة به، والاطمئنان لجنابه لا بل إنها تُعلم بها رجال الدنيا كيف يكون اليقين حقا، ولم لا وكثير من الرجال والنساء الآن -لقلة يقينهم- يقعون في معاصي شتى ويقترفون منكرات عدة لضعف اليقين على اللّه، ولقوة يقينهم على المادة وعلى الحسابات المادية الدنيوية البحتة.

كم من زوجة ضيعت زوجها ودفعته -بقصد أو بدون قصد- للوقوع في الحرام لضعف يقينها؟ وكم من زوجة تحت وطأة الأبناء وضغط طلباتهم مع ضعف يقينها وقعت فيما يغضب اللّه تبارك وتعالى؟ إن اليقين والثقة باللّه سبحانه وتعالى أصبحا الآن عملة نادرة في حياة كثير من الأسر المسلمة الآن، فلابد لنا من التأسي بأسرة الخليل والاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم امتثالا لأمر اللّه عز وجل ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

٣- وانظر إلى قلب إبراهيم عليه السلام الزوج الحنون بعد أن توارى عن عين زوجته خلف الجبال، ماذا فعل؟ هل جعل يبكي ويندب خطه ويعترض على مقدور اللّه تبارك وتعالى؟ لا، إنه قلب موصول باللّه تبارك وتعالى في كل خلجة من خلجاته وفي كل لحظة من لحظات حياته، لقد توجه إلى ربه عزوجل بهذا الدعاء الندى الشفاف الرقراق: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ

تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ من خلال هذا الدعاء تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ لماذا؟

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللّه أكبر، فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك، وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان. أرأيت حرص الزوج المسلم على إقامة الصلاة في أهل بيته؟

ولا عجب أن يخرج من صلبه عليه السلام من يحرص على إقامة الصلاة في بيته كحرص أبيه من قبل، فهذا هو إسماعيل عليه السلام والذي أثنى عليه ربه وقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ ذرية بعضهم من بعض، ومن بعدهم محمد ﷺ والذي أمر اللّه فقال: «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها» ثم يستمر دعاء الخليل عليه السلام: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إنها رفرف الأجنحة، أجنحة القلوب وهي تهفو إلى هذا البيت الحرام.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لماذا؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا فحسب؟ لا، ولكن: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فهذا هو الذي يرجو إبراهيم الشكور والذي قال عنه ربه «شاكرًا لأنعمه» هكذا من خلال هذا الدعاء الرقيق الندي يبرز لنا هدف السكنى بجوار البيت

الحرام إنه إقامة الصلاة على أصولها للّه، وشكر اللّه المنعم الوهاب.

إنه درس للآباء والأمهات في كل وقت وحين: إقامة الصلاة في بيوتنا والحرص على ذلك من الزوج والزوجة والأبناء.

٤- ومن بركة هذه الأسرة المؤمنة المباركة، خلّد اللّه تبارك وتعالى آثارها، فها هي خطوات هاجر بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء أو الغذاء بعد أن نفد الزاد الذي معها يجعلها اللّه عز وجل من مناسك الحج العمرة إلى قيام الساعة حيث قال رسول اللّه ﷺ «**فلذلك سعى الناس بينهما**».

تخيل! سعي الملايين من المسلمين يوميا بين الصفا والمروة (مع شيء من الإسراع قليلًا بين الميلين الأخضرين) يأتي على نفس الخطوات التي خطتها هاجر تحديدًا منذ آلاف السنين. ولم لا وهي خطوات اليقين باللّه والتوكل عليه، ثم كانت المكافأة الربانية لهاجر وإسماعيل ومن بعدها ملايين ملايين المسلمين: إنها زمزم المباركة والتي أخبر عنها رسولنا ﷺ بأنها طعام طعم وشفاء سقم.

ثم دبت الحياة في هذه البقعة المباركة من الأرض، وتحققت دعوة الخليل عليه السلام ومازالت تتحقق مع كل قلب يهفو ويرفرف حول الكعبة زادها اللّه تشريفا وتكريما وتعظيما وبرا.

الموقف السادس

موقف إبراهيم الأب مع ابنه إسماعيل:

وهذا الموقف العظيم تحدث عنه القرآن الكريم في آيات بينات قليلات من سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ [الصافات: ١٠٠ : ١١١].

١- إبراهيم عليه السلام يرى رؤيا، وتتكرر هذه الرؤيا ثلاث مرات، يرى أنه يذبح ابنه وحيده (آنذاك) إسماعيل، ورؤيا الأنبياء حق ووحي. ماذا يفعل إبراهيم الأب عليه السلام؟ كان من الممكن أن ينتظر حتى يأتي وحي صريح بأمر الذبح، وكان من الممكن أن يبادر بذبح ابنه على الفور دون تردد أو تأخير وينهي المسألة في حينها على حين غفلة من ولده وتنتهي القضية، وكان من الممكن كذا... كذا... ولكن إبراهيم عليه السلام فعل شيئًا آخر عجيبا! شاور ابنه إسماعيل! نعم شاور ابنه إسماعيل عليه السلام في أمر ذبحه

بيديه، بيدي الأب الحليم الأواه المنيب ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ مارأيك؟ يا للعجب! إن إبراهيم الأب يريد أن يشاركه الابن إسماعيل في الأجر والثواب. في الأجر على الطاعة والثواب في الصبر على الطاعة. إن إبراهيم لم يريد أن يستأثر بالأجر وحده (لأن الأمر بالذبح هو اللّه تبارك وتعالى) وإنما أراد لابنه أن يؤجر معه، طاعة للّه عز وجل حتى ولو كان الأمر يتعلق بذبح الابن على يدي الأب.

وهذا درس بلغ للآباء الآن وهو أن يحرصوا على أن يشاركهم أبناءهم في الأجر والثواب على الطاعات والقربات، فمثلا إن أراد الأب أن يتصدق فليعط المال لولده الصغير ليضعه بنفسه في يد الفقير أو في صندوق الصدقات وذلك حتى يتعود الولد على ذلك منذ الصغر ويحوز الأجر صغيرًا مع أبيه، وإن أراد الأب أن يذهب إلى مجلس علم، فليصحب ولده معه ليتربى على مجالسة العلماء وليتأدب بآداب مجلس العلم وهو صغير، وهكذا في كل أمر طاعة يحرص الأب على مشاركة ولده له في ذلك، وكذلك الأم تفعل مع ابنتها خاصة في أمر الصلاة والحجاب. وهكذا يحرص الأب المسلم والأم المسلمة على تنشئة أبنائهم وبناتهم تنشئة صالحة صحيحة منذ الصغر وذلك بحرصهما على أن يشاركهما الأبناء والبنات في الأجر على الطاعات والقربات.

٢- وإن تعجب من موقف الأب، فإن عجبك من موقف الابن أشد! ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ انظر ماذا قال له؟ «يا أبت» سبحانه اللَّه! إنها نفس الكلمة التي خاطب بها إبراهيم أباه آزر وهو يدعوه إلى التوحيد «يا أبت» تلك الكلمة الندية الرقيقة المغلفة بالشفقة والحنان.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ نعم أنت تدعوني إلى الذبح ولكنك أنت أبي وأنا ابنك، فهو ينزع عنه صفة الأبوة حتى وهو يشاوره في أمر ذبحه «يا أبت» ثم انظر إلى الأدب مع اللَّه تبارك وتعالى:

* ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ فهو يعلم أن الآمر هو اللَّه تبارك وتعالى، وإذا أمر اللَّه فعلى العبد السمع والطاعة.

* ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قدّم المشيئة تأدبا وتواضعا للَّه عز وجل، فهو لم يقل له مثلا ستجدني من الصابرين أو ستجدني صابرا، ولكنه قدّم مشيئة اللَّه سبحانه وتعالى. إنه الأدب الجم من إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يستقبل أمر ربه لأبيه بأن يذبحه.

٣- ثم استسلم الأب وابنه «فلما أسلمّا»و وقد كان من الممكن أن يرفع البلاء عند هذا الحد من الحوار بين إبراهيم وإسماعيل بعدما تبين رضى الطرفين بأمر اللَّه تبارك وتعالى، ولكنّ البلاء لم يرفع بعد، وكأن في النفس مزيد من السعة للاختيار، وكأن في

النفس مزيد من السعة لاستخلاص العبودية الحقيقة للَّه تبارك وتعالى، لذا يمضي بنا السياق نحو الخطوة التالية لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إنها خطوة التنفيذ:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، بعض المفسرين ذكروا أن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لأبيه: ضع جبهتي على الأرض، وذلك رحمة بأبيه لكيلا تقع عيناه على ابنه وهو يذبحه فيضعف أو تأخذه به شفقة! سبحان اللَّه، إن الابن يعين أباه على ذبحه، إن الابن يعلم أن الأمر شاق وصعب أصلا على أبيه فلا يريد أن يزيده صعوبة عليه، إن الابن يرحم أباه وهو مقدم على ذبحه. ماذا نقول؟ إن الموقف أعجب من أن يوصف!

استسلم الأب والإبن، ووضع السكين على رقبته، ولما لم يبق إلا إراقة الدم... رُفع البلاء: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾... نعم لما نجحا في الاختبار ولم يبق إلا إراقة دم إسماعيل ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ كبش عظيم من السماء جعله اللَّه تبارك وتعالى شعيرة لهذه الأمة في يوم التضحية والفداء.

٤- إن هذه الموقف العظيم بين إبراهيم الأب وإسماعيل الابن عليهما السلام ليطوق أعناق شبابنا وأبنائنا بكثير من الحقوق والواجبات مع آبائهم.

* إن هذا الموقف مع عظمه وخطورته إلا أنه قد دار هادئا بين الولد وأبيه، لم يتشاجرا، لم يرتفع صوت الابن على أبيه في هذا الموقف العصيب، مع أننا نرى مواقف أقل من ذلك بكثير تجري في حياتنا اليومية بين الآباء والأبناء في أمور أقل ما توصف به أنها أمور عادية، ولكن لا ينتهي الحوار فيها بين الابن وأبيه أو بين البنت وأمها إلا بمشاجرة وصراخ وضجيج. . . ! لماذا؟

* استسلام إسماعيل عليه السلام لأمر أبيه كان نابعًا أصلا من استسلامهما معا لأمر اللَّه تبارك وتعالى، وهنا يبرز لنا دور الأب كقدوة. إن إبراهيم عليه السلام، والذي قال عنه ربه تبارك وتعالى ﴿وإبراهيم الذي وفي﴾، لما فَّى بكل ما أمر به أعطى القدوة لابنه والذي استجاب وأطاع لأنه قد تربى على ذلك. وهنا تنبيه للآباء والأمهات بضرورة إعطاء القدوة أولا لأبنائهم وبناتهم قبل أن ترتفع الشكاية منهما بعقوق الأبناء. لابد للولد أو البنت أولًا أن يرى النموذج الصالح والقدوة الحسنة في والديه أولًا، حتى يتربى على الإسلام الحقيقي للَّه عز وجل والطاعة المطلقة لأمر اللَّه تبارك وتعالى، ولعل هذا يجيبنا على تساؤلنا في الفقرة السابقة.

الموقف السابع

موقف إبراهيم العبد مع ربه تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ

بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إبراهيم عليه السلام والذي واجه النمرود كما بينا آنفا، كان من جملة ما قاله له في سياق تعريفه بربه تبارك وتعالى ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فهو عليه السلام عندما واجه بها النمرود قد قالها له وهو يعلم يقينا أن اللَّه تبارك وتعالى هو المحي والمميت.

وفي هذاالموقف الذي بين أيدينا الآن نرى أن إبراهيم عليه السلام أحب أن يترقى من مرحلة علم اليقين بذلك إلى مرحلة عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو تدرج منه عليه السلام في مراحل اليقين، ولم يكن منه شكٌ على الإطلاق، ولذا لما سأله ربه عز وجل ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ كان جوابه عليه السلام ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي بلى أنا مؤمن بأنك على كل شيء قدير ولكن أريد أن أرى وأعاين صورة ذلك ليطمئن لها قلبي ويسكن من التطلع والشوق إلى رؤية هذا السر الإلهي وهو يتجلى ويتكشف. إنه سر الحياة والموت، إنه سؤال الكشف والبيان من العبد الأواه الحليم المنيب.

ولقد استجاب اللَّه الكريم الودود الرحيم لهذا الشوق والتطلع

في قلب عبده إبراهيم ومنحه التجربة الذاتية المباشرة.

ولكن قبل أن نتحدث عن هذه التجربة الهائلة والتي عاينها إبراهيم عليه السلام، يجدر بنا أن نتحول الآن إلى حديث رسول الله ﷺ عن هذا الموقف الإيماني الرائع، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**».

ولأهل العلم أقوال في هذا الحديث الشريف نذكرها إتمامًا للفائدة، منها:

* لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم عليه السلام في أن الله قادر على أن يحي الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا؟

* ليس في قوله ﷺ نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم. لكن فيه نفى الشك عنهما، يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى فإبراهيم عليه السلام أولى بأن لا يشك، فقد قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، كما في قوله ﷺ عن يوسف عليه السلام: «**لو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي**».

* فيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان والمشاهدة. فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال.

* وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديمًا لإبراهيم على نفسه.

والمقصد من عرضنا لحديث رسول الله ﷺ عن هذا الموقف الإيماني مع أقوال أهل العلم فيه هو بيان ما ينبغي أن يكون العبد عليه من أدب مع ربه تبارك وتعالى خاصة عند السؤال والطلب وذلك تأسيا بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام القدوة والأسوة الحسنة.

ثم بدأت التجربة: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأمره الله تبارك وتعالى أن يختار أربعة من الطير فيقربهن منه ويميلهن إليه حتى يتأكد من مميزاتهن التي لا يخطئ معها معرفتهن وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن. ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم أمِرَ أن يفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة. ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ثم ادعوهم يا إبراهيم فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى وترتد إليهن الحياة ويعدن إليك ساعيات... تأمل... ساعيات، أي على الأرض وليس طائرات في الجو كشأن الطير، وذلك مزيد من الاستدلال على أنهن هن الطير التي قطعها عليه السلام بيده.

سبحان اللَّه! طيور فارقتها الحياة، وتمزقت كل ممزق في أماكن متباعدة، ثم. . . . ثم تدب فيها الحياة مرة أخرى! «صنع اللَّه الذي أتقن كل شيء».

سبحان اللَّه! إن هذا السر الإلهى وهذه القدرة المطلقة والتي شاهدها إبراهيم عليه السلام وعاينها بنفسه وترقى بها إلى مرحلة عين اليقين لهي نفس القدرة الإلهية التي تقع في كل لحظة على الأنفس والأنام والدواب وكل شيء سواه، إنها قضية الإحياء والإماتة، إنها الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن والتي تنشأ مرات لا حصر لها في كل حي جديد، والتي يرى الناس آثارها بعد تمامها.

إن إبراهيم عليه السلام قد عاين ذلك، ونحن نرى آثار ذلك لنزداد علما يقينيا بأن اللَّه تبارك وتعالى هو المحيي والمميت سبحانه.

وللوصول إلى اليقين أسباب معينة ينبغي على العبد أن يأخذ بها متوكلًا على اللَّه سبحانه وتعالى:

* النظر إلى آيات اللَّه الكونية: الإحياء، والإماتة، والشروق والغروب، والخسوف الكسوف، والمطر والنبات، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب. . . إلى غير ذلك من آيات اللَّه في الأنفس والآفاق.

* النظر إلى النار - نار الدنيا، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يذني يده من النار ويقول: يابن الخطاب هل لك على هذا صبر؟

* تدبر القرآن ومعايشة الآيات وقراءتها على مهل قراءة تدبر ووعي وفهم. قال رسول اللَّه ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، إذا السماء انفطرت، إذا السماء انشقت**». أي سور التكوير، الانفطار، الانشقاق.

وعليك يا عبد اللَّه أن تتجنب موانع الفهم حتى تنتفع بتلاوة القرآن، فكما قال ابن قدامة المقدسي ناصحا كل تالٍ للقرآن أن يبتعد عن موانع الفهم وهى: أن يكون مصرًا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى بهوى مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه.

*الدعاء: فاللهم قو اليقين في قلوبنا، وكان من دعاء رسولنا ﷺ: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا**». فاللهم آمين

وقد روى الحاكم في مستدركه بإسناد صحيح أن ابن عباس وابن عمرو التقيا، فقال عبد اللَّه بن عباس لعبد اللَّه بن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد اللَّه بن عمرو: قول اللَّه عز وجل ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. . .﴾ الآية فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول اللّه عز وجل «**وإذ قال ربراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى**» فرضي من إبراهيم قوله: بلى. والحمد للّه رب العالمين.

الموقف الثامن

موقف إبراهيم الخليل مع بيت الله الحرام:

يقول اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن
ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٨].

اللّه تبارك وتعالى اصطفى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لبناء البيت العتيق واستجاب اللّه عز وجل دعاءه وحقق في أمة المصطفي ﷺ رجاءه.

فالخليل عليه السلام بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد

غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرمًا محرمًا وآمنا محتما فاستجاب اللّه تبارك وتعالى له مسألته ولبى دعوته وآتاه طِلْبته فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وسأل اللّه سبحانه أن يبعث فيهم رسولًامنهم أي: من جنسهم على لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية السعادة الأولى والأخرة وقد استجاب اللّه له فبعث فيهم رسولًا - وأي رسول- ختم به أنبياءه ورسله أكمل له من الدين مالم يؤت أحدًا من العالمين.

والذي نود التركيز عليه في هذا الموقف الإيماني من مواقف الخليل عليه السلام هو أدعية إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة. وسنرى أن اللّه تبارك وتعالى قد حكى عنهما وهما يبنيان الكعبة أنهما ذكرا ثلاثة أنواع من الدعاء.

النوع الأول

قولهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قول إبراهيم لابنه إسماعيل «يا إسماعيل إن اللّه أمرنى بأمر، قال إسماعيل: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني قال: وأعينك، قال، فإن اللّه أمرني أن أبني ههنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك

رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم». قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان نفس الدعاء». وكان بعض السلف إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ بكى ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك وهذا كما حكى اللَّه تبارك وتعالى عن حال المؤمنين الخلص ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة خائفة أن لا يتقبل منهم.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن الطائع مع ربه عز وجل: بذل الوسع في الطاعات والقربات مع إخبات القلب واستشعار الوجل بعد الفراغ من العمل. فمن وفق إلى ذلك فليعلم أن عمله ذاك أقرب إلى محل القبول من اللَّه تعالى.

النوع الثاني:

قولهما ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجلعنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك مخلصين لك ثابتين

على ذلك، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كذلك.

والمسلم بحاجة إلى هذا النوع من الدعاء لأن فيه قوة وتذكيرًا أنه موصول باللَّه، فالمسلم يدعو لوالديه لأن هذا من البر لهما ويدعو لذريته بالصلاح، وهذا من صلة الرحم، ويدعوا أيضًا لعموم المسلمين ليتذكر الرابطة الإيمانية التي تربطه بهم ويحقوقهم عليه واهتمامه بهم. هذا من أبسط الحقوق التي يؤديها المسلم لإخوانه.

النوع الثالث:

قولهما ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقد أجاب اللَّه تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الدعوة، فبعث في ذريته من ولد إسماعيل رسولا منهم وهو محمد ﷺ، وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم.

ثم بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مرادهما من هذه الدعوة- وأنه ليس مجرد الحرص على امتداد النبوة في عقبيهما، بل لهما مرادٌ آخر ذكراه في الدعاء.

* يتلو عليهم آياتك.

* ويعلمهم الكتاب والحكمة.

* ويزكيهم.

فهي واللّه دعوة المشفق على ذريته من بعده والحريص على هدايتهم وتزكيتهم، وقد أصابنا واللّه خير كثير ببركة هذه الدعوة المباركة وببركة إخلاص من دعا بها عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ونلاحظ في هذه الأنواع الثلاثة من الدعاء أنها كلها توسل باللّه وطلب منه وذكر لأسمائه وصفاته وتبدأ بنداء اللّه تعالى بـ «ربنا».

فعلى المسلم أن يفقه ذلك وأن يتأسى بأبي الأنبياء إبراهيم فيبدأ دعاءه بـ«ربنا» وليستحضر اعترافه بربوبية اللّه تعالى لكل شيء وبعبوديته للّه رب العالمين، ثم ليحرص على أن يذكر أسماء اللّه وصفاته في دعائه، فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد ختما دعاءهما في النوع الأول بـ«إنك أنت السميع العليم» وفي النوع الثاني بـ«إنك أنت التواب الرحيم» وفي النوع الثالث بـ«إنك أنت العزيز الحكيم».

فالمسلم إذا فعل ذلك يكون متأسيًا بإنبياء اللّه تبارك وتعالى، ويكون أيضًا ممتثلًا لأمر اللّه تبارك وتعالى «وللّه الأسماء الحسنى فادعوه بها».

وما سبق قليل من كثير من آداب الدعاء والتي وقفنا عليها من خلال هذا الموقف الإيماني الرائع.

الموقف التاسع:

موقف إبراهيم أبي الأنبياء مع خاتم الأنبياء ﷺ:

روى الترمذي بسند حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان (وهو المكان الواسع المستوى من الأرض جمع قاع) وأن غراسها: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر.

ونحن نرد عليك السلام يا خليل الرحمن، ونتواصى فيما بيننا بغراس الجنة وذكر اللّه تبارك وتعالى.

والحمد للّه رب العالمين

وكان الفراغ من جمع وترتيب هذه المواقف

في ٢٠/ صفر/ ١٤٢٤

٢٢/ إبريل/ ٢٠٠٣

الفهرس

الموقف الأول: موقف إبراهيم الابن ٥
الموقف الثاني: موقف إبراهيم النبي ١١
الموقف الثالث: موقف إبراهيم الداعية ١٥
الموقف الرابع: موقف إبراهيم صاحب الحجة ٢٠
الموقف الخامس: موقف إبراهيم الزوج ٢٤
الموقف السادس: موقف إبراهيم الأب ٣٢
الموقف السابع: موقف إبراهيم العبد ٣٦
الموقف الثامن: موقف إبراهيم الخليل ٤٢
الموقف التاسع: موقف إبراهيم أبي الأنبياء ٤٧